بقلم : (ابو سما)
مقاتل في ج . ش . ت . ف .

المقاومة على المفترق

حول الوضع الراهن ومهمات المرحلة القادمة

« تكمن عبقرية القائد الاستراتيجية في مطابقة وسائله مع هدفه ، دون ان يبالغ فيها او يقصر في استخدامها »

■ كلاوزفيتز ■

تعيش المنطقة العربية اليوم فترة جزر ثوري من اخطر فترات الجزر التي عرفتها في عصرنا الحاضر . وتميد الارض تحت اقدام الثوريين العرب الذين ينظرون الى غيوم الثورة المضادة وهي تتراكم لتحجب قرص الشمس التي كادت ان تبزغ ، ويتساءلون وسط شموخ صمودهم : ما العمل ؟

ولا يمكن الرد على هذا السؤال قبل معرفة اتجاهات الرياح التي تتدافع السفينة . فليست ثورتنا وحدة مستقلة تعيش في فراغ ، ولكنها جزء من كل ، تتفاعل مع الاجزاء الاخرى بصورة متبادلة فتتأثر بها الى حد بعيد ، وتؤثر بها ضمن حدود حجمها ودناميكية حركتها .

وهي تتأثر قبل كل شيء بواقع الثورة العالمية التي تقف موقف الدفاع الاستراتيجي امام ضربات امبريالية شرسة مغامرة تشن الهجوم في مختلف ارجاء العالم . ولقد غدا واضحا أن الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الامركية ما كانت لتتعرف بمثل هذا العنف والاستهتار ، لولا وضعها الاقتصادي الذي يتطلب الحرب كحل لمعضلاتها الداخلية ، ولولا مصالحها الضخمة في كل مكان ، ولولا استغلالها للتناقض الحاد القائم داخل المعسكر الاشتراكي ، ولسياسة التعايش السلمي السوفياتية التي لا ترجع بجذورها الى عهد الخروتشوفية – كما يعتقد البعض – بل تمد هذه الجذور حتى تصل الى فترة سيطرة ستالين – بوخارين التي تلت وفاة لينين ، ولولا تقييم دول المعسكر الاشتراكي لافضليات التناقضات العالمية وسلسلها واهمية خطورتها والتي تعتبر تناقض الدول الاشتراكية مع المعسكر الامبريالي اخطر من تناقض الامبريالية مع ثورات التحرر في العالم . ولا تنعكس كل هذه الاعتبارات على تصرفات الاتحاد السوفياتي وحده بل تمتد لتشمل تصرفات دول اوروبا الشرقية القريبة من منطقة الصراع العربي – الاسرائيلي فتجعلها اقرب الى تصرفات المؤيد الذي يقدم الدعم والعون دون ان يذهب الى درجة اخذ دور الشارك الذي يلقي بوزنه الكلي في المعركة .

واذا استثنينا الصين والدول الاشتراكية الاخرى السائرة على خطى بكين، والمنادية بضرورة مجابهة الامبريالية واحباط مخططاتها في الوطن العربي ، وجدنا أن دول المعسكر الاشتراكي تؤيد موقف موسكو الخاص بالتسوية السلمية لازمة الشرق الاوسط ، اي التسوية التي تبعد عن المنطقة خطر صدام دولي سابق لاوانه وتضمن استقرارها المؤقت ، ريثما يتم انقلاب موازين القوى العالمية ، ويتحقق على المدى البعيد تفوق قوى المعسكر الاشتراكي بشكل يكبح جماح الامبريالية ويقلص نفوذها ، فتنكمش بالتالي كل بقايا هذه الامبريالية وامتداداتها في القارات الثلاث – بما في ذلك اسرائيل – او يقضي على النظام الامبريالي برمته ، وينهي كل مظاهر العسف الطبقي والقومي في العالم .

اسوا من واقع حزيران

والعامل الثاني الذي يؤثر على ثورتنا هو واقع العالم العربي المجزأ ، الذي كتمت الحكومات الرجعية القمعية انفاس الجماهير في بعض اقطاره، وقتلت بذور الحركة الثورية قبل ظهورها ، وجاءت بعض الحكومات شبه التقدمية في اقطار اخرى فاحتوت الثورة ، ورفعت شعاراتها ، واستنزفت زخم الجماهير الثوري، وغيرت الكثير من البنيات الفوقية دون أن تدفع التغيير الى مستوى خلق علاقات جديدة داخل مجتمع ديناميكي ، قادر على الافادة من وجود عالم اشتراكي يحمل تجربة نصف قرن ، والانتقال من مجتمع يحمل كل اثار التخلف الاجتماعية والاقتصادية الى مجتمع عصري يواكب التطور العالمي، ويشارك في صنع تاريخ البشرية . ومهما تكن تطلعات الجماهير العربية وامالها ورغبتها في تحرير الارض المحتلة ، ومهما تكن المواقف السابقة للحكومات العربية ، فلقد أثرت عليها الضغوط الامبريالية المتصاعدة ، والضربات الاسرائيلية القمعية الموجهة الى جيوشها ، وتفوق العدو عليها في أسلوب الصراع الذي اختارته الحكومات لنفسها انطلاقا من تكوينها وطبيعة علاقاتها مع الجماهير (وهو اسلوب الصراع التقليدي البحت بدلا من أسلوب الحرب الشعبية بمعناها الواسع) ، وتقاعسها عن تكريس قواها لمعركة المصير الفاصلة ، وعجزها عن ايجاد صيغة تربطها بدول المعسكر الاشتراكي برباط لا يقل قوة عن رباط اسرائيل مع دول المعسكر الامبريالي ، بشكل يخرج السوفيات عن موقفهم ويدفعهم الى القاء اكبر وزن يتصورونه ممكنا (ضمن حدود استراتيجيتهم العالمية) ، وقع فيتنام جديدة تشمل الارض العربية كلها بما في هذا التحول الخطر من مآسي وتضحيات وآمال . قادتها كل هذه الامور الى منطق اقليمي متهالك ، يقبل اليوم ما كان يرفضه بالامس، ويفلسف التنازلات التي ما ان يحصل العدو عليها حتى يتجاوزها مطالبا بتنازلات جديدة غيرها .

وهكذا وصلت الامة العربية اليوم الى موقف علمي ملموس اسوا من الموقف الذي اعقب هزيمة حزيران .

صحيح ان كثيرا من الجماهير قد غدت بعد حزيران ١٩٦٧ اكثر وعيا لحقيقة ما حدث ، وصحيح انها كشفت بعد ذلك فداحة الخسارة وابعادها واحتمالات انعكاسها ، كما عرفت مدى العجز في المعسكر العربي ، والتصميم في معسكر العدو وحلفائه ، وتخلصت من وهم المعجزات القادرة على ان تحقق في الستينات نتائج تشابه انسحاب المعتدين في الخمسينات ، وصحيح انها تعيش الان الحقيقة بكل نبضها وترى أن الارض محتلة ولا تزال محتله ، وان العدو يتصرف بقحة متزايدة ويطالب بمكاسب اكبر ، وان الضغط الامركي جاثم على صدرنا بكل ثقله ، وان اصدقاءنا يعرفون حقيقة حجمنا ، ويعون حجم مصالحهم ، ويرون بكل وضوح عتبة التضحيات التي لا يمكن ان يتجاوزوها من اجلنا في وضعنا الراهن . ولكن هذا الوعي الذي يشكل ايجابية لا تنكر في واقع الامة يفقد جزءا كبيرا من قيمته امام سلبيات الواقع المجزأ – كما كان قبل الهزيمة – وعمليات الاستنزاف المعنوي في مهمات ثانوية على حساب مهمة « التحرير » الاساسية ، وعمليات الدعاية التي تصور الحلول التصفوية بانها انتصار « يحقق بالسلم ما عجزت الحرب عن تحقيقه » ، وتخدع الجماهير بتصوير انسحاب العدو من الاراضي المحتله كانتصار عظيم حرم العدو من تحقيق اهدافه التوسعية ، متجاهلة في الوقت نفسه ذكر الثمن المدفوع لتحقيق هذا الانسحاب ، وهو تأمين « السلم » لاسرائيل اي تحقيق « هدف حربها » وهو هدف أهم بكثير من الارض .

ولقد استخدمت وسائل الاعلام في عملية الخداع على نطاق واسع ، وكان للاذاعة دور كبير في هذا المضمار لان الجماهير العربية التي لم تنفتح بعد كليه على الكلمة المكتوبة تتأثر بالكلمة المسموعة الى حد بعيد .

وهكذا ورغم الوعي الناجم عن الهزيمة تدفع الجماهير دفعا نحو مفاهيم خاطئة جديدة . وتتعرض لاخطر عملية اعداد نفسي كيما تتقبل تصرف الحكومات التي تريد ان تدفع اليوم نقدا ثمن حزيران ، بعد ان ماطلت كثيرا في الدفع ، وهذا ما يجعل الموقف العملي الملموس اليوم اسوا من الموقف بعد الهزيمة .

وكان الممكن ان نجعل من هذا الحدث « خسارة معركة لا خسارة حرب » ، ولكن حقيقة تصرف هذه الدول الان وبعد حوالى أربع سنوات يعني انها خسرت الحرب ، ما دامت قد رضخت – ولو بعد فترة مماطلة وحرون – لارادة العدو في صراع الارادات ، وقبلت تقديم التنازلات التي كان يصبو اليها ويسعى الى تحقيقها ، وأصبحت على وشك تقديم السلم – بالشكل الذي رسمه العدو – أي على تحقيق هدف حربه .

اما الحكومات الرافضة للحل السلمي ، فبوسعها ان ترفض الى ما لا نهاية دون ان يكون لرفضها اي وزن في الصراع الدائر حاليا ، طالما انها بعيدة عن حقل المعركة الفعلية ولا تخضع للضغط اليومي المتمثل بالاحتلال العسكري ، ولا تزج كل طاقاتها المادية والمعنوية في المعركة .

والعامل الفعال الثالث هو الشعب الفلسطيني داخل الارض المحتلة وخارجها . ومن المؤكد ان الوضع المعنوي والزخم الثوري لهذا الشعب يمر في مرحلة من اخطر المراحل من جراء سلسلة التحولات التي أصابته . فلقد حلم هذا الشعب حتى عام ١٩٦٧ بجيوش عربية جرارة تحرر الارض وتعيد المشردين الى اراضيهم . وبقي رغم كافة العمليات القمعية التي تعرض لها داخل الارض المحتلة وفي بعض الاقطار العربية (وخاصه الاردن) ورغم حاله الضياع التي تعيشها الامه بأسرها ، ورغم حملة الدعاية الاسرائيلية الدؤوبة محافظا على جذوة الحماس في أعماقه . وجاءت الصدمة الاولى في حزيران ١٩٦٧ لتهز أسس ايمانه وتجعله ينظر الى المستقبل بتشاؤم ومرارة ويعتقد بانه خدع خلال سنوات طوال . ثم ما لبث بعض التشاؤم ان تبدد مع اتساع نشاط المقاومة ، واستعاد الشعب المسحوق بعض ثقته بنفسه ، ولكنه اخذ يؤله من يحملون السلاح رغم الهزيمة ، ثم جلس ينتظر من الاله الذي صنعه بيديه ان يخلق المعجزات . ولكن طبيعة المقاومة، وظروف نشوئها ، وخلافاتها المبررة (المستندة الى خلفيات فكرية متنافسة) ، وغير المبررة (المستندة الى خلافات شخصية بحتة مكشوفة أو مغطاة بغطاء ايديولوجي شفاف) ، وخصائص المعركة ، وواقع العدو ، وارتفاع أهمية مستوى « هدف الرهان » لديه الى اهمية مستوى « هدف الرهان » العربي .. الخ ، لم تكن لتسمح للمقاومة بان تكون على الصورة التي رسمها لها الشعب ومبالغات الدعاية . [...] تناقض كبير بين حقيقة المقاومة وما تطالبها [...] الجماهير العربية عامة والفلسطينية خاصة [...] يكن التناقض نابعا من خطا المقاومة او [...] – خاصة وان تكوينها ، وطبيعة قياداتها ، و[...] وتجربتها النضالية القصيرة والمؤامرات [...] حولها لم تكن تسمح لها بان تقدم اكثر [...] مما قدمت – ولكنه كان ناجما عن خطا [...] التي رسمها مخيلة الانسان العربي لها . [...] الشعب الفلسطيني يحس بخيبة الامل [...] وهو يرى الهه عاجزا عن « شفاء الاعمى والابرص »

وأخيرا جاءت الصدمة الثالثة مع احداث ايلول ، وسلسلة الاحداث التي سبقتها واعقبتها في الاردن ولبنان ، وسددت القوات الاردنية البيضاء ضربتها المضادة للثورة تحت ستار صمت عربي – سوفياتي ، وتأييد اميركي – اسرائيلي

وشاء مخططو الضربة ان لا تكون لتصفية المقاومة فحسب ، بل لتصفية بقايا الامل داخل [...] الانسان الفلسطيني أيضا . بغية اقناع [...] الانسان بان تعايشه مع « العرب » [...] وان « الخطر العربي » اكبر احيانا من الخطر الصهيوني . ورافق الضربة العسكرية [...] المقاومه عملية ابادة واذلال مقصودين [...] المخيمات ، وحرب نفسية واسعة [...] (مساعدات طبية اسرائيلية ، الحديث عن [...] اسرائيل لم تضرب القرى العربية بمثل [...] الضربات الاردنية ، تسليط الاضواء على [...] النهب وهتك الاعراض التي قامت بها [...] الملكية البيضاء .. الخ) ، وطرح مكثف [...] النعرة الاقليمية الاردنية – الفلسطينية

والحقيقه ان هذه الصدمة اوجدت شرخا [...] في صفوف الجماهير الفلسطينية ، افقدها جزءا كبيرا من عنادها النضالي ، وجعلها – وهذا [...] اخطر ما في الامر – اكثر استعدادا [...] من الناحية النفسية لتقبل [...] من المشاريع التي لم تكن لتخطر على بالها [...] وكان هذا انتصارا لا ينكر لقوى الثورة المضادة

واقع حركة المقاومة

والعامل الرابع والاخير هو حركة المقاومة [...] فهي جزء فعال من الموقف الراهن . ويرى [...] من ينطلقون لحل المسالة ان لموقف المقاومة [...] أي حل اهمية بالغة ، لذا فهم يرسمون الخطط [...] لارغامها على قبوله بالقوة ، او خداعها [...] الى اعتباره ربحا لا بد من التمسك به والسعي الى تحقيقه . ولن نعمد هنا الى الخوض في تاريخ تشكيل المقاومة او تفصيلات اخطائها الجزئية، ولكننا سنكتفي بلمس النقاط الاساسية التي تؤثر على مسيرتها النضالية بشكل [...]

لقد طرحت المقاومة منذ البداية هدفا كبيرا [...] « تحرير الارض المحتلة » وكان هذا أمرا صحيحا [...] وعلى غاية من الاهمية لانه حدد الهدف النهائي الذي لا بد من اعداد القوى لتنفيذه . ولكن المقاومه اخطأت عندما لم تلحظ بعد هذا الطرح الصحيح ان الهدف اكبر من امكانات الفلسطينيين وحدهم ، وشجعها على الاستمرار في هذا الخطأ كثير من الحكومات العربية التي انهكها الصراع فلم تعد قادرة على متابعته ، او لم تشارك في الاصل لعجزها عنه . ودفعت بعض فصائل المقاومه الى طرح المسالة وكانها صراع [...] – اسرائيلي ، او على ابعد تقدير صراع عربي – اسرائيلي يتم توزيع الادوار فيه بالشكل التالي :

١ – تقوم الدول العربيه المحيطة بنشر جيوشها على الحدود انتظارا ليوم الهجوم الذي كانت تعرف انه لن يأتي خلال هذه الحقبة على الاقل ولكنها لا تصارح الجماهير بذلك ! .

٢ – يقوم الفلسطينيون بحرب العصابات .

٣ – تجاهد الدول العربيه الاخرى (وخاصة البترولية) بمالها واذاعها وخطب زعمائها حتى آخر فدائي على ارض المعركة !!

وكان من الطبيعي ان تقبل المقاومه هذا التوزيع نظرا لواقعها ، وشكل تواجدها ، وضخامة اجهزتها الاضافيه الزائده ، وجسامة مصروفاتها . ولكنه كان عليها بالتالي أن تعلن ولاءها للدول العربية ، وعدم تدخلها في الاوضاع الداخلية (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) واستعدادها لتلقي المساعدات فقط في سبيل محاربة العدو الاسرائيلي – وهو جزء من العدو فقط – والسكوت عن بقية الاعداء (الرجعية العربية) فوضعت بذلك الحركة الثورية في انبوب اختبار معقم ، وحرمها من التفاعل الحقيقي مع الجماهير العربية . وجعلت هذا التفاعل يتم عبر قنوات الانظمة والحكومات نفسها ، واخذت تدور في فلك هذه الدول مكرسة بذلك وجودها ، ومضطرة بذلك الى تجاهل الافق العربي الحقيقي لحرب التحرير المنشودة .

ونجم عن هذا الموقف الخاطئ أصلا ، وعن وهم البورجوازية الصغيرة بامكان التعاون مع الحكم الاردني ككل ومع المؤسسة العسكرية في الاردن بكاملها ، أخطاء استراتيجية لا تغتفر . فبدات المقاومة تتصرف على أرض الاردن وكانها على ارض صديقة ، او كأن الحكم القائم وقوى القمع العاملة في خدمته قوة وطنية مؤيدة للمقاومة . ولم تر قيادات المقاومة ان الجيش الملكي الابيض ينتقل بصورة متدرجة من معسكر القوى التي يمكن تعبئتها في معركة التحرير الى معسكر القوى المضادة للثورة . وان الانتقال قد تم نهائيا بعد طرح مشروع روجرز وبعد انتهاء السلطة العميلة من تصفية معظم العناصر الوطنية الفعالة العاملة داخل الجيش وقوى الامن . فبقيت تنظر اليه كمؤسسة وطنية – على اعتبار ما كان – وتتعامل معه على هذا الاساس ، فلا تهتم بتفتيته اهتماما كافيا ، ولا تخلق في داخله خلايا سياسية ثورية تضم الجنود الثوريين وقصرت اهتمامها – في حالة وجوده – على الاتصال بالضباط فقط ، وهذا امر له جذوره الطبقية ودلالته المعروفة .

الخطأ الاستراتيجي الاساسي

وهكذا وقعت المقاومة ككل ، والمنظمات المتعددة كل على حدة ضحية نرجسيتها اولا ، وفلسطينيتها ثانيا ، واوهامها ثالثا ، واصبحت كل محاوله توحيدية تصطدم بال « انا الثورية » ، وجاءت بعض الدول العربية لتشجب تعدد المنظمات لفظا وتشجع التعدد فعلا عن طريق دعم الانشقاقات أو تبني التشرذم أو خلق منظمات جديدة مرتبطة بالدول عضويا . واتجهت الدعايات العربية لشق المقاومة وتصنيفها الى « شريفة » و « غير شريفة » ، وكان من جراء ذلك ان تضخمت الـ « أنا » حتى غدت ظاهرة مرضية ومشكلة من مشكلات المقاومة وعقبة – من جملة العقبات العديدة – التي تمنع تطورها وتصاعدها .

ويحاول البعض عند تقييم مرحلة ما قبل ايلول تعداد اخطاء المقاومة، فيذكر التعدد، والخلافات، وعدم الفاعلية القتالية، وطرح شعارات اجتماعية لا تلائم المرحلة ، ومهاجمة هذا النظام العربي أو ذاك ، واستفزاز السلطه الاردنية ، وعدم التلاحم مع الجماهير ، وفتح المكاتب ، واستخدام السيارات ، ويتدنون احيانا حتى يصلوا الى الاخطاء الفردية التي تقع في كل زمان ومكان . والحقيقة ان كل هذه الامور لا تشكل اخطاء بل نتائج ومظاهر خطا في التقييم السياسي لطبيعة الانظمة العربية وحقيقة ادوارها المحتملة في المعركة وخطا استراتيجي اساسي هو **« تحديد هدف استراتيجي اكبر من القوة المتوفرة ، واكتشاف الاختلال في ميزان القوى خلال الصدام، وعدم العمل على تعديل ميزان القوى او تحديد اهداف مرحلية أصغر ، والتمسك على العكس بالهدف الاساسي ، ومتابعته بعناد حتىحدود الاستنزاف الذاتي »** .

ويمكن ايجاز هذا الخطا الاخر باسم « العناد الاستراتيجي اللاعقلاني » وهو لا ينجم الا عن « عمى استراتيجي » يمنع الرؤية الحقيقية لميزان القوى ، وتناسب القوى مع الاهداف ، ويمنع بالتالي كل امكانيات التلاؤم بين القوة والهدف ، او عن « نرجسية ثورية » ترفض الاعتراف بالخطا ، وتقدس تجربتها الذاتية ، وتندفع بحمية يائسة لتمجيد أهداف مستحيلة، وخلق ملاحم بطولية انتحارية ، او عن « انعدام الجراة الثورية » وهي الصفة الاساسية اللازمة لتقرالمراحل ، واعادة النظر ، وتبني التنظيم وطريقه العمل والشعارات والاساليب المناسبة لكل مرحلة جديدة .

لقد كان على المقاومة التي حددت هدفها في تحرير فلسطين ، ان تحدد حجم القوة اللازمة لهذا العمل ، وتتصور ديناميكية رد فعل العدو طالما انها لا تعمل ضد جسم ميت أو قوة ثابتة . ولو فعلت ذلكلادركت فعلا ان قوتها لا تكفي لتحقيق الهدف ، ولآمنت بان خلق هذه القوة لا يتم الا عربيا ، وبان عليها ان تحافظ على ما تملكه وتنميه بدلا من ان تبدده ، وان تستخدم قواها بتقتير كامل فلا تطرح الحرب طويلة الامد ، ثم تبدا العمل وكانها في عشية معركة التحرير الفاصلة .

وفي غمرة هذا الواقع المتخبط السائر بلا افق او مخطط للوصول الى الافق ، كانت القوى الرجعية تعد العدة لضرب المقاومة ، ومنعها من ان تكون قوة فعالة قادرة على تمثيل الشعب الفلسطيني والتحدث باسمه ، والتأثير على الاحداث ، وعرقلة المخططات التي ترسم. وعندما وجدت الرجعية الاردنية انها قد استعادت حيويتها التي فقدتها خلال حرب حزيران ، واعادت بناء القوة اللازمة لتنفيذ المخطط وحققت انقلاب ميزان القوى لصالحها ، استغلت موجة الاخطاء الجزئية ، والدعايات المحمومة المضادة ، ولحظة الانقسام المريع الذي أصاب المقاومة والجماهير الملتفة حولها بسبب تباين المواقف من مشروع روجرز ، وانقضت على المقاومة . وكان لا بد من تحليل معركة ايلول واستنباط النتائج والدروس . ولقد حاول اكثر المحللين – بحكم الفهم التقني المحدود – تسليط الاضواء على اخطاء المقاومة ، كالتسليح ، والتدريب ، والارتباط ، والقيادة ، وأساليب استخدام الالغام والحواجز ، والشؤون الادارية .. الخ ، التي تبقى رغم أهميتها ضمن حدود الاعداد التقني . وارتفع البعض الاخر الى مستوى التكتيك ، فانتقد اساليب الهجوم والدفاع وطرق القتال في المدن والجبال ، على حين بحثت قلة قليلة في اخطاء استراتيجية عسكرية لا تخرج عن مستوى تعاون قوات الريف مع مليشيا المدن، وتعاون المقاومة (عصابات) مع قوات جيش التحرير الفلسطيني (النظامية) . ولكن خطا المقاومة الرئيسي في هذا الصدام كان شيئا آخر غير هذا كله ، لانه كان خطا على مستوى الاستراتيجية العليا . لقد كانت المقاومة بحكم تكوينها وارتباطاتها العربيه وآفاقها عاجزة بمجموعها عن تبديد الوهم البورجوازي الذي تحدثنا عنه ، والقائل بامكانيه التعاون مع السلطه الاردنيه او تحييدها ، وعاجزة عن رؤية حركة انتقال القوات المسلحه الاردنية من قوة وطنية لا تجد ضيرا في مساعده المقاومه الى قوه من قوى الثورة المضادة الراغبة بالاجهاز على المقاومة . وانعكس هذا العجز بانعدام القدرة على تحديد موقف موحد من السلطة الاردنية كلها . وان كانت بعض الفصائل قد انفردت بقرار اسقاط السلطة فقد اتخذت هذا القرار بشكل بلانكي مشوه ، او اعتمدت على انقلاب عسكري عادي لا يحمل من الثورة الا اسمها ، او اكتفت بطرح الشعار سياسيا . ولكنها كانت في جميع الحالات غير مستعدة « تقنيا » لعملية الاسقاط ، ولم تنظر الى الانتفاضة كـ « فن » له اصوله المعروفة ، وعمل ضخم خطير لا ينبغي « اللعب به » . اما بقية الفصائل فكانت تنتظر هجوم العدو ، وهي متأكدة من وقوعه ، فلم تبادر الى الهجوم ، لانها لم تستطع اتخاذ قرار باسقاط السلطة ، بل بقيت في الدفاع السلبي « وفي الدفاع موت الثورة » (ماركس) .

واذا كان بوسع المقاومة أن تبرر هذا الموقف الدفاعي ، وعدم القيام بالانقلاب البلانكي بسبب عدم تناسب ميزان القوى ، وعدم شن الانتفاضة المسلحة لعدم نضج الظروف اللازمة للهجوم (وهي الظروف التي حددها لينين بحالة ثورية جماهيرية متقدمة ناجمة عن رفض غالبية الشعب للاستمرار في الوضع القائم. وحزب ثوري طليعي مسلح مستعد للقتال وقيادة الجماهير . وحالة تردد وتفتت داخل معسكر العدو والمحايدين المتذبذبين) واذا كانت المقاومة تتذرع بان موقفها هذا كان ناجما عن الابتعاد عن «المغامرة اليسارية» وضرورة التمسك باهداب « الصبر الثوري » فان كل هذه الحجج فقدت مدلولها ووزنها بعد ان قام العدو بهجومه المفاجيء ، ونزلت الجماهير الى الشارع حاملة سلاحها لمجابهة الدبابات ووصل الوضع الثوري الى « اللحظة الحرجة » هنا كان على المقاومة ان تنزل الى الشارع وتقود الجماهير حتى تسقط السلطة . ولقد نزلت المقاومة بالفعل الى الشارع ، وقاتلت ببطولة ، وقادت الجماهير خلال الاشتباكات (ضمن حدود امكانياتها وبافق تكتيكي بحت) . ولكنها لم تحدد لنفسها وللجماهير المسلحة هدفا محددا ، ولم توجه القتال كله لتحقيق هذا الهدف . لقد كانت عناصر المقاومة والميليشيا تصطدم مع الجيش في معارك تكتيكية لمنع تقدم الدبابات في هذا الشارع ، أو لصد الجيش المهاجم لاحتلال ذاك المخيم . ولكن الرباط الاستراتيجي العام لهذا القتال ، اي هدف مجموعة الاشتباكات (اسقاط السلطة) كان مفقودا من الناحية العملية رغم وجوده على الصعيد النظري والطرح المجرد . لان هذا الطرح لم يترجم فعلا بعمل هجومي وروح هجومية على كافة المستويات ، ولا تسقط الحكومة القديمة حتى في ذروة الازمة « اذا لم تجد من يسقطها » (لينين وزينوفييف) .. من هنا اخذت الاشتباكات كلها شكلا دفاعيا (للدفاع عن النفس) دون افق استراتيجي واسع . لان مثل هذا الافق لا يمكن ان يأتي لوحده ، وما هو الا نتاج تقييم سياسي وقرار سياسي لم يكن متخذا ، ولم يكن من الممكن اتخاذه .

ويحلو لبعض منظري المقاومة ان يفلسفوا عدم اللجوء الى الهجوم بانه ابتعاد عن « الانتهازية اليسارية » ، وهم يتحدثون عن « ميزان قوى غير ملائم » ، و « ظروف ناضجة » ويؤكدون ان عدم الهجوم لم يكن ناجما عن « انتهازية يمينية » بل عن رغبة في مزيد من الاعداد والتلاحم مع الجماهير .. الخ . ويتمتع قولهم بالصحه كلها حتى يوم ١٩٧٠/٩/١٧ ، ولكنه يصبح على غاية من الخطا بعد ذلك ، لان الطليعة التي تعمل على توعية الجماهير، وتوقف اندفاعاتها العفوية انتظارا لقدوم « اللحظة الحرجة » المواتية مضطرة الى التخلي عن هذا الموقف واستلام زمام القيادة اذا ما نزلت الجماهير المسلحة الى الشارع أو اذا ما بادر العدو بالهجوم .

وقد يترك هذا الحديث لدى القارئ انطباعا بانه لو كان لدى المقاومة افق استراتيجي صحيح ، وروح هجومية ملائمة وردت على هجوم قوى الثورة المضادة بهجوم شامل لاسقاط السلطة لتم اسقاط السلطة فعلا . ولكنني في الحقيقة لا أريد ان أقول ذلك لان ميزان القوى قد لا يسمح بذلك ، وليس في الانتفاضة المسلحة – وفي كل عمل حربي – أي حكم قاطع من هذا النوع ، ما دامت الحرب في طبيعتها أمرا محفوفا بالمفاجآت . وكل ما اود ان أقوله هو ان التصرف بهذا الشكل يعني السير على السبيل القويم ، والعمل على تحقيق شرط لازم ولكنه غير كاف لتحقيق النجاح .

هنا قد يحتج بعض الرفاق ويؤكدون بانه لو تم الهجوم من قبل المقاومة وحققت هجماتها الاولى بعض الانتصارات لما غير ذلك من الامر شيئا ولتعرضت المقاومة بعد ذلك الى ضربات قاسية ، ولكانت النتيجة في نهاية المطاف مساويه لنتائج ايلول بالاضافة الى خسارة تأييد الجماهير . ولكن هذا الاحتجاج خاطىء ، وتزداد خطورة خطئه من انه صادر عن ماركسيين (لم يقراوا ماركس بامعان) ولو فعلوا ذلك لراوا انه يتحدث في رسائله الى كوغلمان عن كومونة باريس فيقول « لو لم يخض الناس الصراع الا بعد التحقق المطلق من النصر لكان خلق التاريخ امرا على غاية من السهولة . لقد طرحت بورجوازية فرساي القذرة امام الباريسيين الاختيار التالي : قبول التحدي أو الاستسلام بلا قتال . ولو قبلت الطبقة العمالية الحل الثاني لنجم عن ذلك انهيار معنوي يفوق ضرره خسارة أي عدد من الزعماء » . ولقد طرحت البورجوازية الاردنية البيضاء امام الجماهير والمقاومة حلين . وكان على المقاومة (الطليعة) ان تختار وأن تقوم بدورها في خلق التاريخ ، وان لا تخشى الهزائم الجزئية المؤقتة التي تحمل في طياتها بذور نصر مقبل اكيد . وان نرى بان الصراع الثوري سلسلة من المناوشات والمعارك الظافرة والخاسرة التي يكون الظفر فيها دفعة الى امام ، وتكون الخسارة فيها مدرسة